الخلفية الفكرية للمستشرقين
الظاهر والمضمر

الدكتورة: حيـاة معـاش
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكرة

تقديم

إن موضوع الاستشراق يفرض نفسه علينا بإلحاح شديد ويتطلب من كل طالبِ وباحثِ علم وقفةً تأملية جادة وموضوعية، ودراسة أبعاده وتأثيراته؛ لأن الاستشراق سلاح ذو حدين يشمل عناصر سلبية وأخرى ايجابية، وله تأثيراته القوية في الفكر الإسلامي الحديث إيجابا وسلبا أردنا أو لم نرد ذلك، لهذا لا يمكن تجاهله أو نكتفي بمجرد رفضه؛ لأنه قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا المعاصر.

إن المستشرقين هم الذين حفظوا كنوز العرب في خزائنهم ومتاحفهم ومكتباتهم باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ؛ هم الذين أرسوا قواعد الجامعات الشرقية وطرق التدريس المنهجية بها ، وهذا بصرف النظر عما كان يدفعهم إلى هذه الخدمات، وعمن استطاع الاستعمار أن يسخره منهم لأغراضه وأهدافه، وبغض النظر عن هوياتهم الدينية العقائدية وإساءات بعضهم المقصودة وغير المقصودة.

فهناك من يؤيد الاستشراق ويتحمس له وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل من يشتغل به. فمن هم المستشرقون، وهل حقا خدموا اللغة العربية أم كانت أبحاثهم وَبالاً على الأمة العربية والإسلامية؟ وما هي أهدافهم ودوافعهم الحقيقية؟ وما هي أساليبهم وطرق تفكيرهم؟

هذه الأسئلة وأخرى ما سنحاول الإجابة عنه في هذه المداخلة.

1/ المستشرقون:

هم جماعة من العلماء الغربيين نبغوا في لغات الشرق وتخصصوا فيها وفي آدابها وقاموا بدراسة الشرق وتاريخه وديانته وعلومه في عصوره المختلفة.

وقد عرف الغرب الاستشراق في القرن العاشر الميلادي حينما كان الشرق في قمة مجده عامرا بالمدارس والجامعات، وكان الغرب غارقا في ظلمات الجهل والتأخر العلمي والحضاري، وقد اقتحم الشرق على الغرب في صقلية والأندلس والموانئ الإيطالية، وجنوب فرنسا، وملك المشارقة كل جزر البحر الأبيض المتوسط، وكانوا سادة هذا البحر الكبير الذي تقوم على شواطئه كثير من الدول الأوروبية؛ فأخذ الغربيون يتصلون بالثقافة العربية التي بهروا بها، وأخذوا يتعلمونها في المدارس العربية أو ينقلون كتب العرب في الطب والهندسة والرياضيات والفلك والفلسفة والجبر والكيمياء والطبيعة إلى لغة الثقافة عندهم (اللاتينية)[1]

وكان أول من عني منهم بذلك طائفة من رجال الدين المسيحي، وساعدهم على ذلك علماء اليهود الذين نقلوا مئات الكتب العربية إلى اللاتينية، وأكبّ الغربيون على هذه الكنوز فدرسوها وهضموها وكانت أساس البناء في نهضتهم وحضارتهم وقد شجع بعض ملوكهم هذه الحركة كالملك فريدريك الثاني ملك صقلية سنة 1250 وألفونس مللك قتشالة، وغيرها من ملوك أوربا الذين عملوا على ترجمة علوم العرب وفنونهم حتى بلغ ما ترجم أكثر من ثلاثمائة كتاب. وظل الأمر كذلك حتى القرن السابع عشر حين استيقظت أوربا، وجاء القرن الثامن عشر، فأشتغل كثير منهم في طبع الكتب العربية، وإنشاء مدارس اللغات الشرقية. ثم زادت عناية الغرب بالدراسات الشرقية، فظهر الاستشراق في العصور الحديثة وظهر نشاط أصحابه الكبير في الآداب والعلوم والفنون[2].

وهكذا إذن ما لبثت أوربا أن تخطت دور التعلم، ومهرت في شتى أنواع العلوم وبنتْ على هذا القديم الذي نقلته ومحصته ودرسته دراسة عميقة علماً جديداً لا يزال في نمو واطراد، وهو عماد الحضارة الغربية اليوم، ومع أن أثر العلوم والآداب العربية لا يجحد فإن هذا الأثر قد ضعف على مرّ الأيام[3].

إذن فالحضارة العربية كانت فيما مضى في أوجها وبلغت شأوًا عظيمًا، وكان أهل أوربا في أشد الحاجة لمعرفتهم وثقافتهم ففي الأندلس أو اسبانيا مثلا: " بقيت العربية لغة الثقافة والمعاملات والعقود حتى سنة 1580 وظلت بعض قرى بلنسية تتكلم العربية حتى

القرن التاسع عشر وأن الفلسفة الإسلامية ظلت تدرسُ في جامعات أوربا حتى سنة 1650 وأن أرسطو لم يكن يفهم إلاّ بشروح ابن رشد وأن طبّ ابن سيناء كان غاية كل مشتغل بالطب في أوربا أمدًا طويلاً، وأنّ مئات الكلمات العربية التي تنبئ عن الحضارة والعلم قد دخلت اللغات الأوروبية واستعجمت مثل قيثارة، وقطران وأميرال وشراب وزعفران وكافور، صك ورزمة، وإكسير وكيمياء، وجبر، وساقية، ... وهم الذين علموهم صناعة الحرير وصناعة السلاح والخزف المذهب، والفسيفساء والبلور والورق والأصباغ والأدهان والمعادن، وعلم الجبر والحساب بأرقامه"[4].

وحتى الفلسفة اليونانية التي يعتزُّ بها الغرب وعليها بنى حضارته وثقافته إنما وصلت إليه عن طريق العرب " فهم الذين حفظوها وشرحوها وعلقوا عليها وأضافوا إليها فلسفتهم وآرائهم فلما استيقظت أوربا وجدت الطريق ممهداً فسارت في المدينة بخطى واسعة"[5].

ولا يزال إلى اليوم نشاط الغرب في الاستشراق مستمر يدرسون آداب وتاريخ الشعوب وحتى لغاتهم وأوضاعهم الاجتماعية وجغرافية بلادهم ليس فقط من أجل معرفة أحوال الشعوب وإنما في الحقيقة خدمة للتنصير والتبشير والاستعمار أيضا فالنتيجة هو ما يشهده المشرق العربي اليوم من نزاعات وحروب مزقت الأمة العربية وأمست أقليات متخاصمة تحكم البلاد والعباد وانتشار الفتن وزرع الكراهية والحقد والتعصب بين أبناء البلد الواحد.

2-أصنافهم:

هم ثلاثة أصناف: [6]

الصنف الأول: الذين يقومون بالدراسات من المستشرقين سواء في بلادهم أو بلاد الشرق ويستخرجون التراث الشرقي ويترجمون الكتب الشرعية واللغوية، لا لخدمة هذا الشيء؛ لكن لمعرفتها، ودسِّ الشبهات فيها، ومنهم باحثون أخرجوا كتب التراث الشرقي محققا تحقيقا مميزاً، أو يكون هدفهم الافتخار بهذا العمل أمام العرب، ويقولون: " نحن نحمي لكم تراثكم ونحفظه، وهم يقصدون بذلك الخداع.

الصنف الثاني: هم الوافدون إلى بلاد الشرق قصد الدراسة في جامعاتها أو يكون عضواً في المجامع اللغوية مثل: (كارل تالينو، بلاشير، بروكلمان، مارجيليوث.. وغيرهم، فقد درس بعض هؤلاء في جامعة القاهرة.

الصنف الثالث: اللذين يجوبون الأقطار والجزيرة العربية بقصد كشفها ومعرفة جغرافيتها تمهيدا للاستعمار.

3-نشاطهم:

لقد ظهر نشاطهم الكبير بخاصة في الآداب والعلوم والفنون ونجمل بعضه في الآتي:

- طبع كثير من الكتب العربية المخطوطة والعناية بضبطها وتبويبها وعمل فهارس منظمة لها وشرح ما يحتاج إلى شرح منها.
- حفظ المخطوطات العربية في المكتبات الكبرى في عواصم أوربا.
- إنشاء فروع جامعية لتعليم اللغة في الجامعات الكبرى
- تحقيق كتابة تاريخ الآداب العربية.

وكانوا يتوسلون إلى ذلك بإنشاء الجمعيات وعقد المؤتمرات وإقامة المكتبات وتأسيس المعاهد، وإلقاء المحاضرات، وتشجيع البعثات واستغلال الصحافة والإذاعة.. وغيرها من طرق النشر.

-التدريس الجامعي- الترجمة من العربية إلى اللغات الأوربية [7].

4- صور نشاط الغرب في الاستشراق:

لخصها لنا عمر الدسوقي وهي كالآتي: [8]

- **الجمعيات الآسيوية:** وهي جمعيات أنشأها المستعمرون أول الأمر لدراسة شؤون الدول التي يحكمونها والتعرف على لغاتهم وآدابهم ونفسياتهم حتى يكون حكمهم مبنيّاً على أسس متينة ومن أقدم الجمعيات وأشهرها: الجمعية الملكية بلندن وقد تأسست سنة 1723 ونظيرتها الفرنسية سنة 1820 ولكل منها مجلة مشهورة تعنى بالأبحاث الشرقية والإسلامية والعربية، حيث نشرت المجلة الآسيوية الانجليزية مقامات الحريري، وترجمان الأشواق لابن عربي كما اعتنى الفرنسيون في مجلتهم بالمذاهب الإسلامية فبحثوا في الدروز والشيعة والإسماعيلية والوهابية وما شاكل ذلك.

وحذا كثير من الدول حذو انجلترا وفرنسا في إنشاء الجمعيات الآسيوية فصار لأمريكا الجمعية الشرقية ولألمانيا وايطاليا والنمسا.

- **المؤتمرات:** ولعل أول مؤتمر عقده المستشرقون هو مؤتمر باريس سنة 1773 وتكررت بعد ذلك عديد المؤتمرات

- **المكتبات:** إن كثيرا من خصائص الفكر العربي والإسلامي ليس في البلدان العربية وإنما اكتنزه الغربيون في مكتباتهم؛ حيث جمعوا هذا التراث خلال العصور الماضية وأيام محن المسلمين بالأندلس وصقلية وفرنسا وإيطاليا وقيام الحروب الصليبية ..الخ فأخذوا الكتب الثمينة، ومن أشهر مكتباتهم مكتبة برلين وباريس، ولندن وأكسفورد ومدريد ... وغيرها، مما دفع بالكثير من العلماء إلى السفر إليها وتصويرها ونسخها، ومحاولة إعادتها إلى المكاتب العربية لعل أهمهم: أحمد تيمور وأحمد زكي.
- **معاهد اللغات الشرقية:** يوجد في العواصم الكبرى بأوربا مدارس للغات الشرقية يرد مناهلها طلاب أوربيون يدرسون اللغات كي يتمكنوا من العيش ببعض بلاد الشرق تجاراً وموظفين أو سياحاً أو مستعمرين، كما يؤمها اليوم كثير من أبناء البلاد الشرقية والغربية يتزودون من علم كبار المستشرقين ويأخذون عنهم طرق البحث والاستنباط ومن أشهر هذه المعاهد مدرسة اللغات الشرقية بلندن وباريس وبرلين.

5- أشهر المستشرقين في فرنسا:

دى ساسي الفرنسي توفي 1838: وهو منشئ الجمعية الآسيوية الفرنسية، وكان من أعظم المستشرقين وأصبرهم على الدرس وخلف عديد الآثار مثل: ترجمته لكلية ودمنة، مقامات الحريري، رحلة عبد اللطيف البغدادي وألفية ابن مالك والبردة وكتاب النقود للمقريزي وكتاب الزاجل لابن الصباغ وترجم كثيرا من أشعار العرب وله مؤلف في تاريخ العرب أيام الجاهلية ... وغيرها.

- **كاتر مير Quatre mére 1857:**

وهو من تلاميذ دي ساسي الفرنسيين ومن أعماله نقل تاريخ المماليك للمقريزي وطبع مقدمة ابن خلدون في ستة أجزاء بالعربية والفرنسية وترجم المعلقات السبع وكتاب الأغاني والفاطميين وغيرها من الأبحاث .

- **مونك- monk 1857:**

وهو ألماني يهودي درس على ساسي، وقدم مصر فجمع مخطوطات كثيرة منها: تاريخ الهند للبيروني.

- **ماسبنيون: massignon:**

وهو من المستشرقين المعاصرين، كان عضوا بمجمع اللغة العربية بمصر ومن أكثر المستشرقين نشاطا وأطولهم باعاً وقد كان أستاذا لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية وتتلمذ أول أمره في الجزائر وتونس وفاس ورحل إلى العراق وجاب كثير من الأقطار العربية ومن أثاره المهمة أخبار الحلاج الصوفية وله بحوث في دائرة المعارف الإسلامية. وغيرهم كثير [9].

وقد حرص هؤلاء المستشرقون على نشر الكتب التي تناول الإسلام من جميع جوانبه – عقيدة وشريعة– ولعل من أشهر دور النشر التي تطبع مئات الكتب حول العالم الإسلامي وقضاياه المختلفة جامعة أكسفورد ومن أشهر كتبها المطبوعة " موسوعة أكسفورد للعالم الإسلامي الحديث" وتتكون من أربعة مجلات تتألف من 1840 صفحة.[10]

6-أهدافهم:

تختلف وجهات النظر حول تحديد الأهداف الحقيقية بين من يقول بحملات هؤلاء العدائية على الإسلام والمسلمين من خلال بعض الآراء والتحريفات التي مست العقيدة الإسلامية ويمكن أن نورد مجمل هذه الأهداف التي وردت في كتاب الأدب العربي الحديث لمسعد بن عبد العطوي:

- كشف البلاد
- التشكيك في مصادر الدين الإسلامي وصحة نبوة الرسول – صلى الله عليه وسلم.
- إلقاء شبهات حول أحكام الدين الإسلامي
- المغالطات
- تزيين الأفكار البديلة.
- افتراء الأكاذيب
- التلطف في دس السموم الفكرية بصورة خفية.

ويختمها بقوله: " المستشرقون ليسو أرباب الديانات وإنما هم صنائع السياسات" فهو ربط حريتهم بالسياسة الاستعمارية المقيتة. [11]

أما محمود حمدي زقزوق في كتابه " الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري يرى أنه من الضروري الابتعاد عن أسلوب المواقف الجدلية الانفعالية؛ لأنها قليلة الجدوى وإن كان لها بعض التأثير فإنه تأثير وقتي سرعان ما يزول، فهو يقول بوجوب مخاطبة عقل القارئ ووضع أمامه القضية بإيجابياتها وسلبياتها وضرورة المشاركة في البحث عن الحلول

الجادة والتزام الموضوعية، لأن في صالح الإسلام حسب وجهة نظره ويقول:" إن الإسلام بوصفه دين الله الحق لا يخشى عليه من أية تيارات فكرية مناوئة أيا كان شأنها وانتشارها. وقوتها طالما وجد هذا الدين من أتباعه من يستطيع فهمه فهما سليما وإدراك أهدافه ومراميه إدراكا واعيا..... فسيتضح أنه لا توجد هناك تيارات فكرية يمكن أن تتحدى الإسلام بل العكس هو الصحيح"[12].

ثم يذكر مجموعة من الأهداف نذكر بعضها:

– الهدف الديني (محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه وإبرازها والزعم بأنه دين مأخوذ من المسيحية واليهودية والانتقاص من قيمته والحط من قدر نبيه.

– حماية المسيحيين من خطره بحجب حقائقه عنهم وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين

ثم يضيف في كتابه أن الهدف الديني لم يعد ظاهراً الآن في الكثير من الكتابات الاستشراقية فليس معنى ذلك أنه قد اختفى تماماً، إنه لا يزال يعمل من وراء ستار بوعي أو بغير وعي.

فمن الصعب على معظم المستشرقين المشتغلين بدراسة الإسلام وأكثرهم متدينون نسيان أن هذا الدين ينكر عقائد أساسية في المسيحية ويهاجمها مثل: عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء، كما أنه من الصعب نسيان أن الدين الإسلامي قد قضى على المسيحية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها، ثم يعقب على هذا الكلام ويقول بأن هذا ليس حكما عاما على جميع المستشرقين، فهناك فريق حاول جاهدا الالتزام بالحياد والموضوعية وأنكر على كثير من زملائه نزواتهم التي انحرفت بهم عن النزاهة العلمية، وهناك من أنصف في جانب وتحامل في جانب آخر[13].

وخلاصة القول فإن المستشرقين هم ليسوا أرباب الديانات وإنما هم صنائع السياسات وأهدافهم تنوعت وتعددت حسب توجهاتهم وخلفياتهم الفكرية والحضارية والدينية؛ فهناك أهداف علمية وأخرى تجارية وسياسية، وهناك أهداف استعمارية مبنية على التعصب والحقد والكراهية كتزيين السلوك الذي يراد تحويل الأمة إليه وإثارة الشبهات والشكوك حول كل شيء في الإسلام والسعي لإثارة ألوان الاستهزاء والسخرية من المسلمين باسم الرجعية والتخلف ،كما أن

هناك من أنصفوا الإسلام في بحوثهم وكتاباتهم وتبقى الإشكالية مطروحة بين مؤيد ومنتقد أو رافض لها.

الهوامش:

(1) ينظر: محمد الطيب عبد النافع إبراهيم وعبد الرحيم يوسف، تاريخ الأدب والنصوص الأدبية، مكتبة الوحدة العربية، 1965، ص 723.وينظرعمر الدسوقي في الأدب الحديث، دار الفكر العربي ج1،ط7 ، القاهرة، ص 372/371.

(2) ينظر نفسه: ص 723، 724 .

(3) ينظر: عمر الدسوقي ،في الأدب الحديث، ج1، ص 374.

(4) نفسه، ص 373.

(5) نفسه، ص 374.

(6) ينظر: مسعد بن عيد العطوي، الأدب العربي الحديث شبكة الألوكة شوال 1430هـ/2009 www.aluka.neth، ص 58.

(7) ينظر: محمد الطيب عبد النافع، إبراهيم عبد الرحيم يوسف، تاريخ الأدب والنصوص الأدبية، ص 724. وينظر محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة ، 1997 ،ص 61 وما بعدها.

(8) ينظر: عمر الدسوقي، الأدب الحديث، ج1، ص 376، 377.

(9) للاطلاع أكثر على أسماء المستشرقين الفرنسيين والإنجليز والألمان ينظر: عمر الدسوقي في الأدب الحديث، ج1، ص 378 وما بعدها.

(10) ينظر: أنور محمود زناتي، أساليب الاستشراق وأدواته، ص 1/9، hup://www, alukah.net

(11) ينظر: مسعد بن عبد العطوي، الأدب العربي الحديث، ص 59.

(12) محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص 15.

(13) ينظر: نفسه، ص 75، 76.